مَركز الشَّيخ عَلِي الغِريَاني للكِتابْ
Sheikh Ali Al-Gharyani Book Center

www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

مقال

من الليبرالية إلى الإمبريالية النفسية.. محاولة فهم

زهير عطوف

من الليبرالية الى الإمبريالية النفسية.. محاولة فهم

في عصر العولمة والليبرالية ومع تزايد الأجيال التي تجيد التعاطي مع الأدوات التكنولوجية، صار الحلم الغربي يترسخ في أذهان الناس بشكل متزايد، وباتت الثقافة الشعبية الغربية الليبرالية هي النموذج المثالي الذي تسعى الأجيال لإدراكه وتقليده.

أما الليبرالية النفسية - التي مجالها هو النفس البشرية-، فتنطلق من الإيمان أن الهدف من الإنتاج هو الاستهلاك، وأن الهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك وأن حياة المرء تكتسب معناها من الاستهلاك، ويزيد المعنى مع تصاعد نسبة الاستهلاك، ولابد للإنسان من أن يصبح سلوكه نمطياً حتى يمكن أن يستهلك السلع التي تنتج بدون هدف، ولذا فإذا كانت في الماضي الحاجة أمّ الاختراع، فإنها في إطار الرأسمالية النفسية، تصبح الاختراع أبو الحاجة، حيث تأتي الحاجة بعد التسويق للاختراع إذ لابد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم ثم تظهر بعدها حاجة الناس لها.

العولمة والليبرالية:

تقوم العولمة على محاولة تحرير الإنسان المعاصر من الحدود الجمركية والقيود السياسية والفكرية والدينية والسماح للأفكار والبضائع -السلع- والأشخاص بالحركة اعتماداً على أحدث وسائل التكنولوجيا. فالعولمة تستعمل أحدث وسائل التكنولوجيا وعلى رأسها الاتصالات السلكية واللاسلكية والوسائل الالكترونية والكومبيوتر والانترنت وكل التكنولوجيا الحديثة لتطوير الاتصال وقطاع الخدمات بحيث تعمل على تحرير البشرية من هذه القيود لتصبح أكثر قربا من السلع.

العولمة كذلك هي أداة لتشكيل حياة الناس الأخلاقية، حيث نجحت العولمة في تشكيل الطريقة التي ينظر الناس بها إلى ثقافتهم الخاصة. فعلى سبيل المثال، شاب عربي مدمن على الأفلام الغربية، في كثير من الأحيان ينظر إلى الثقافة العربية كثقافة متخلفة. فالطرق التقليدية للباس والأكل والمعيشة لم تعد توافق صورة الحياة الحديثة التي صنعتها العولمة. وعلاو ة

على ذلك، فإن اللغة المستخدمة ونمط الحياة بين عدد كبير من المراهقين أصبحت تعتمد أساسا على ما تقدمه العولمة. كما تؤثر العولمة على كيفية رؤية الناس للقيم الأخلاقية، فعلى سبيل التوضيح، فإن القيمة الأخلاقية «تقدير الآباء» كانت دائما قوية في الثقافة العربية، ومع التركيز المتزايد للعولمة على الفردانية والحرية الشخصية، لم يعد الكثير من الشباب العربي يعتبر هذه القيمة الأخلاقية واجبا حيويا تجاه الآباء.

وفي الالفية الثالثة عصر الرأسمالية والليبرالية والتي سادت فيها الطفرة التكنولوجية والمعرفية غير المسبوقة كالأنترنت والفضائيات وغيرها بات تأثيرها كبيرا، حيث اصحبت الثقافة الغربية الليبرالية هي النموذج المثالي الذي تسعى الأجيال لإدراكه وتقليده بدءاً من مشروب الكوكاكولا، مروراً بساندويتش البرجر والماكدونالدز، وصولاً إلى البنطال الجينز، مما يعني أن الكثير من دول العالم باتت متغربة فكريا وثقافيا وإعلاميا.

فاليوم مثلا لا يخلو إنتاج سينمائي او اشهار تلفزيوني من تعميق القيم المرتبطة باقتصاد السوق والثقافة الاستهلاكية وعولمة نموذج الإنسان/ الفرد الأناني المستهلك، وكذا تقديم نموذج النظام الليبرالي الحالي كقدر لا يمكن تغييره ونمط الحياة المرتبط به كأرقى ما يمكن أن تعيشه البشرية.

فالعولمة من خلال السياسات الليبرالية الحديثة التي تعتمد عليها -مثل انخفاض الأجور وتدهور مستويات المعيشة وتقلص الخدمات الاجتماعية- إنما ترسم لنا بعض صور المستقبل السحيق للرأسمالية، وتبدو قتامة المستقبل المتوحش للرأسمالية إذا ما سارت الأمور على منوالها الراهن، حينما يشير المؤلفان لكتاب فخ العولمة «بيتر مارتن» و«هارالد شومان» في تنبؤ تصوري إلى أنه خلال القرن 21 سيكون هناك فقط 20% من السكان الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام. أما النسبة الباقية –أي -80% فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة الذين لن يتمكنوا من العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير.

مع نمو العولمة يزداد تركز الثروة وتتسع الفروق بين البشر وبين الدول اتساعا لا مثيل له، حيث أن 358 ملياردير في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه2.5 مليار من سكان المعمورة -أي ما يمثل تقريبا ثلث سكان العالم- وأن هناك 20% من دول العالم تستحوذ على 85% من الناتج العالمي الإجمالي وعلى 84% من التجارة العالمية ويمتلك سكانها 85 % من مجموع المدخرات العالمية.

الإمبريالية النفسية: الاستهلاك ثم الاستهلاك:

وفي سياق مواز يتطرق المفكر عبد الوهاب المسيري إلى مسألة غاية في الأهمية لخصها في علاقة الاستهلاك بالإمبريالية النفسية، حيث يعتبر الإمبريالية النفسية مرتبطة إلى حدٍّ كبير بزيادة السُعار الجنسي والاستهلاك والتكالب على كل شيء –السلع، النساء ... - ومن هنا فهي في نظره من أهم عوامل التفكيك في العصر الحديث.

إن الإمبريالية النفسية تتوسع بانتشار الرأسمالية داخل النفس البشرية ذاتها، التي تتحول إلى سوق دائم الاتساع تسيطر عليها هذه الإمبريالية وتوجهها عن طريق ماكينة وسائل الإعلام، حيث يتم تنميط الإنسان حتى يدخل الآلة الاستهلاكية. وفي ذات السياق باتت الثقافة الشعبية الغربية الليبرالية هي النموذج المثالي الذي تسعى الأجيال لإدراكه وتقليده، كما أن الهدف من الهجوم الإعلامي على الإنسان هو إشاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتنميطهم بحيث يجد الإنسان العادي نفسه «مبتلعاً» للفكرة «الطعم» التي تصرح بأن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك.

والهدف من الإنتاج من منظور الإمبريالية النفسية هو الاستهلاك، والهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك، وحياة المرء تكتسب معنى إن هو استهلك، ومزيدا من المعنى إن هو صعَّد من استهلاكه. وأنه كي تكتمل سعادته، وكي يحقق ذاته لابد من شراء سيارة جديدة كل عام، ولابد له من شراء قميص من النوع الفلاني وأحذية من النوع العلاني، ومن ثم تتحول كثير من الكماليات إلى ضروريات لا تكتمل السعادة في الحياة الدنيا بدونها.

وتقوم الإمبريالية النفسية بتحديد الهدف من الحياة للمواطن أو المشاهد. فالغاية لم تعد هي السعادة أو التوازن وإنما هو الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك. وعلى هذا المستوى تصبح المجتمعات الاستهلاكية لا يهمها المعنى ولا تبحث عنه، فالسلعة تصبح هي البداية والنهاية وهي مركز الوجود، بل وهي التي تضفي معنى على حياة الإنسان الاستهلاكي، بمعنى أن السلعة تزيح الإنسان من مركز الكون لتحل محله، وتصبح السلعة أكثر أهمية من الإنسان.

وعلى مستوى الإمبريالية النفسية، يتم تنميط الإنسان الغربي وتدجينه وأصبح من السهل تحويله إلى مادة استعمالية أي طاقة إنتاجية. وهذا ما

تفعله الإمبريالية النفسية فهي تحاصر النفس البشرية بثورة التوقعات والتطلعات التي لا تنتهي. فيصبح الإنسان بسيطا ذا بُعد واحد من السهل تنميطه، فهو مادة استعمالية جيدة مرنة مطاطة، شيء بين الأشياء، يمكن توظيفه، فيدخل الآلة الاستهلاكية الجهنمية بعد أن يلقى في روعه أن السلع لا تحقق منفعته وحسب، بل سعادته، أي لذته أيضا.

في المحصلة يمكن القول إن النظام العالمي الجديد هو عولمة للإمبريالية النفسية، وتعميم لمفهوم الإنسان الاقتصادي الجسماني -لا يبحث إلا عن منفعته الاقتصادية ولذته الجسدية-، وهو إنسان ذو بعد واحد لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، يتراجع فيه خطاب التآلف والتراحم، ليحل محله الخطاب الإمبريالي المادي النفعي، خطاب لا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وقد نجحت الإمبريالية النفسية في معظم أنحاء العالم، ولكن أهم ضحاياها، الذي تم افتراسه، هو الإنسان الغربي ذاته. حيث تصبح نظرة المواطن الغربي للحياة هي مجرد زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك، أي يظن أنه يدخل بكامل إرادته وحريته دائرة الاستهلاك والإنتاج العبثية، وهو وضع شامل ونموذج ضخم يهيمن على الإنسان من الخارج ويستبطنه المرء دون أن يشعر. وبمعنى أكثر ووضوحا كما سماها المفكر الألماني يورغن هابرماس حيث قال: إن ما يحدث في المجتمع الغربي الحديث هو «استعمار عالم الحياة».